صورة الاغتراب من خلال المجموعة القصصية
"الساكنة الجديدة "لزهور ونيسي

كلاتمة خديجة

جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي

تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على أحد أهم الموضوعات استقطابا من قبل الكتاب والأدباء، خاصة في مجال الرواية العربية المعاصرة والقصة، إنه موضوع "الاغتراب" هذه الظاهرة الإنسانية التي أضحت تميز واقع الإنسان المعاصر نتيجة التقدم العلمي والتكنولوجي وكثر الحروب وسطوة الدول المتقدمة على العالم ؛ حيث طغت المادة على اهتمامات الإنسان المعاصر مما أدى إلى اغترابه الروحي والوجودي. والمجموعة القصصية" الساكنة الجديدة" للكاتبة زهور ونيسي نموذج عن واقع اغتراب الفرد الجزائري بمختلف أشكاله نتيجة الظلم والقهر و الاستبداد من قبل الاستعمار الفرنسي، لذلك سنعمل على إبراز مختلف صور و أشكال هذه الظاهرة من خلال هذه المجموعة.

الاغتراب ALIENTATION ظاهرة إنسانية قديمة قدم الوجود الإنساني ظهرت نتيجة ظروف وملابسات أثرت كثيرا على حياة الإنسان الفكرية والنفسية والعضوية منها، ليغترب بجسمه ونفسه و عقله إلى عوالم أخرى،عوالم اللاشعور باحثا عن حياة مثالية ليصنع بها ذاته الغائبة، وبما أن هذه الظاهرة مرتبطة بحياة الإنسان النفسية والاجتماعية والفكرية حتى الإيديولوجية فقد كانت محل دراسة عديد من الاختصاصات على اختلاف توجهاتها كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع، والفن والأدب.

ومن الطبيعي أن تتعدد مفاهيم هذه الظاهرة بتعدد مجالات البحث فيها،فمنهم من يعرف الاغتراب على أنه: « شعور بالانزعاج بحضور شخص أو

شيء،أو منظر طبيعي غير مألوف، الذي مصدره الإحساس الغريب بعدم التعرف على الأشياء » [1]، ومنهم من يرى أنه اضطراب نفسي يعبر عن اغتراب الذات عن هويتها وبعدها عن الواقع وانفصالها عن المجتمع، وهو غربة عن النفس و غربة عن العالم [2]، ويعرف أيضا بكونه: « شعور الفرد أنه غريب عن ذاته، لا يجد نفسه كمركز لعالمه و أنه خارج عن الاتصال بنفسه كما هو خارج عن الاتصال بالآخرين» [3]، ويتضمن مصطلح الاغتراب معاني كثيرة نذكر منها: معنى الانفصال؛أي الانفصال الحتمي المعرفي للكيانات أو عناصر معينة عن واقع الحياة، كما يأخذ معنى الانتقال وهو التخلي عن حق من الحقوق ومصادرة حقوق الملكية، ويدل على انعدام القدرة و السلطة، وانعدام المغزى و تلاشي المعايير كأن يفتقد المجتمع للمعايير المطلوبة لضبط سلوك الأفراد [4].

وبما أنه ظاهرة قديمة قدم وجود الإنسان فلا شك أن البحث في مفهوم هذا المصطلح مر بمراحل تطور من خلالها؛إذ نجد ثلاث مراحل أساسية يكاد يتفق عليها الدارسون :

المرحلة الأولى:مرحلة ما قبل هيجل و فيها أخذ مصطلح الاغتراب معاني مختلفة باختلاف سياقاتها وهي: السياق القانوني بمعنى انتقال الملكية من صاحبها ونقلها لآخر، والسياق الديني ومعناه انفصال الإنسان عن الله، أما السياق النفسي والاجتماعي فهو خروج الإنسان عن ذاته ومخالفته لما هو سائد في مجتمعة ومخالف للمبادئ التي يدعو إليها. [5]

المرحلة الثانية:وهي المرحلة الهيجلية فقد عدّ هيجل أول من استخدم مصطلح "الاغتراب " استخداما منهجيا مقصودا؛ مستندا في ذلك إلى إجراءات علمية وحقائق فكرية وفلسفية إلى جانب هذا فقد ربطه بالجانب الفني، والاغتراب عند هيجل أن يضيع الإنسان شخصيته الأولى باحثا عن شخصية مثالية و يفقد حريته [6]، وسيطرته على جميع ممتلكاته ويصبح مصهورا في مجتمع لا يعترف له بأي استقلال ذاتي [7]

المرحلة الثالثة:وهي ما بعد هيجل : وهي المرحلة التي توحد فيها مدلول المصطلح الذي يعني كل ما يهدد وجود الإنسان وحريته في عصرنا الحالي [8].

وقد لقيت ظاهرة الاغتراب كغيرها من الظواهر اهتماما من قبل الأدباء الغربيين نذكر منهم الكاتب "فرانس فانون" و الكاتب التشيكوسلوفاكي "كافكا" kafka الذي كرس أدبه كلّه للوقوف على ظاهرة الاغتراب الإنساني ومعاناته اليومية، وعرض في كثير من كتاباته إلى رحلة الإنسان الغريب في هذا العالم، وتحدث عن صراع الإنسان مع حياته مواكبا للتطور الحضاري [9]، كما انتقلت دراسة هذه الظاهرة إلى الأدب العربي خاصة الرواية العربية التي أضحت تستوعب جل الأساليب والإجراءات الحديثة بعد ما كانت تتوقف عند حدود سرد الأحداث حيث أصبحت قادرة على احتضان مختلف الخطابات السياسية والاجتماعية والفكرية وبذلك تغوص في مشاكل الإنسان المعاصر، فأصبحت الرواية بهذا المفهوم حلقة وصل بين الإنسان وواقعه النفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والايديولوجي وهي الجنس الأدبي الأنسب لتجسيد واقع الاغتراب الإنساني على اختلاف أشكاله وأبعاده السيكولوجية والسوسيولوجية.

وغير بعيد عن جنس الرواية جنس أدبي آخر استطاع أن يحتضن عديدا من قضايا العصر من بينها الاغتراب؛ إنها "القصة" التي لا تختلف في بنائها السردي عن الرواية فهي الأخرى فضاء نصي يسعى من خلاله القاص إلى عرض موضوعات تمس واقع الإنسان المعاش بكل أبعاده النفسية والاجتماعية والسياسية والأيديولوجية وعلى هذا الأساس كان اختيارنا للمجموعة القصصية "الساكنة الجديدة " للكاتبة والأديبة الجزائرية "زهور ونيسي" الصادرة عن دار آلفا للنشر لتؤكد من خلالها عودتها إلى عالم الكتابة القصصية التي بدأت بها مشوارها الأدبي النابض بروح الثورة التحريرية، وهو ما تعوّد عليه القارئ العربي في كتابات الأديبة، ومنها هذه المجموعة حيث استطاعت أن تترجم من خلالها الاغتراب النفسي والروحي والاجتماعي والثقافي والعضوي الذي كان يعاني منه الفرد الجزائري داخل الوطن وخارجه إبان الاحتلال الفرنسي وبعده ؛فالسياسة التي

اتبعتها فرنسا تقوم على محاولة محو وطمس مقوّمات الشخصية الجزائرية وجعلها تتخبط في هاجس الهوية وتغريبها عن عالمها الحقيقي حتى تستطيع تحقيق أهدافها التي كانت تصبو إليها، ولعل تصريح الكاتب والطبيب "فرانس فانون" – المدافع عن الثورة الجزائرية وحق الشعوب في التحرر – وهو يتحدث عن سياسة فرنسا الاستعمارية من أجل القضاء على النظام التربوي الخاص بتعليم القرآن يؤكد أقوالنا بقوله: « إننا نعيش مرحلة تحطيم للقيم الثقافية، ولأنماط الحياة المختلفة للغة ولطريقة الملبس، وأن للطرق المتبعة في ذلك طرق منحطة تماما » [10]، كما استطاعت الكاتبة أيضا أن تجسد هذا الاغتراب من خلال تصويرها لحال المغتربين خارج الوطن نتيجة النفي والتهجير وهما من أهم السياسات التي اتبعتها فرنسا ضد الجزائريين.

اختلفت أحداث المجموعة القصصية "الساكنة الجديدة" وشخصياتها من قصة إلى أخرى، إلا أن مغزاها ومضمونها يكاد يكون واحدا وهو تصوير ظاهرة الاغتراب بأبعادها المختلفة حيث تقوم أحداث هذه القصص على شخصيات خيالية هي بمثابة رموز وعلامات دالة تجسد شخصية الإنسان الجزائري المغترب نفسيا واجتماعيا وثقافيا نتيجة الظلم والقهر والاستعباد؛ فالمجموعة القصصية إذن فضاء نصي رئيس دال أو علامة سيميائية دالة تحمل في طياتها دوال ثانوية تحتاج إلى سبر عميق لمدلولاتها لتتضح لنا الصورة الحقيقية للاغتراب على اختلاف أشكاله، لذا سنحاول أن نستنطق كل ما في هذا الفضاء النصي من عتبات نصية كالعنوان،ولغة القصة،الشخصيات، الأحداث، الزمان والمكان بما أنها المكونات الرئيسية لبناء الخطاب السردي حتى تتجلى صورة الاغتراب في المجموعة القصصية أكثر.

ملامح الاغتراب من خلال عناوين المجموعة القصصية:

العنوان: من أولى مراحل تحليل أي خطاب شعري أو نثري يتم الوقوف عنده واستنطاق بنيته التركيبية لإبراز خصائصها النحوية والأسلوبية والدلالية ومقاصده التداولية لإبراز أبعاده الدلالية وإيحاءاته،وهو عبارة عن علامة سيميائية

دالة تقوم باحتواء مدلولات النص [11] القريبة والبعيدة وكما ينزع العنوان إلى اختزال النص والتعريف به فإن النص بدوره يشتغل على تفكيك شفرات العنوان وتفجير مدلولاته [12].

وبما أن عناوين المجموعة القصصية التي بحوزتنا تحمل شحنات دلالية توحي بالاغتراب أردنا أن نبرزها من خلال تحليلنا لها إذ تشكل أغلب العناوين نسقا علاميا دالا يختزل صورة الاغتراب باختلاف أبعاده النفسية والروحية والاجتماعية، فعلى جادة الإليزي، وإرهابية، والنفي بلا رجعة، وغربة مفروضة، مطارx، اغتراب، تعاطف، الساكنة الجديدة، العبور على الجسر، و سد الخيال، و الفيلسوفة؛هي عتبات نصوص سردية تختلف أحداثها وشخصياتها غير أن أبعادها الدلالية تجتمع لتصور ظاهرة اغتراب الإنسان المعاصر عن عالمه وواقعه نتيجة الظلم والقهر والحرمان الذي تتسبب فيه السياسة الاستعمارية الجائرة.

إرهابية:

تحاول الأديبة من خلال هذا العنوان تسليط الضوء على قضية هامة؛ إنها قضية "الإرهاب " الصفة التي أضحى ينعت بها كل من يحمل دما عربيا ويدين بالإسلام، هكذا رسم الغرب معالم الشخصية العربية والإسلامية أمام العالم، فكل من يحاول أن يدافع عن أرضه، وعن دينه وعن عرضه ضد انتهاكات الدول الغربية والسياسات الاستعمارية يسمى "إرهابيا "، وهي صفة تحمل كل معاني الاغتراب النفسي والروحي والاجتماعي حتى الو جودي، وهي صفة في الأصل تطلق على كل إنسان مجرم يقوم بجرائم ضد الإنسانية فيخافه الجميع و يهابه وبالتالي يصبح منبوذا اجتماعيا، والكلمة في أصلها اللغوي من الجذر:« رَهَبَ بالتحريك ورَهِبَ بالكسر تعني الخوف و الفزع » [13]،والإرهاب مصدر للفعل أرهب الذي يعني أخاف وأفزع وكل ما يخيف ويفزع يخشى ويبتعد عنه.

إلا أن الكاتبة في هذه القصة تحاول أن تظهر المعنى الخفي والجديد لهذه الكلمة الذي وضعه الغرب للإطاحة بالإسلام والمسلمين، لذلك نجد الكاتبة في هذه القصة تجسد واقعا أليما مر به الشعب الجزائري وهو يعيش حالة اغتراب داخل

وطنه وفوق أرضه إذ كيف يكون إرهابيا وهو يحاول أن يدافع عن دينه وأرضه وعن هويته التي سلبت منه باحثا عن الاستقلال والحرية وهذا ما وجدنا عليه الفتاة ابنة السادسة عشرة ربيعا بطلة هذه القصة التي احتجزها العسكر الفرنسي وهي عائدة من الفصل الدراسي بتهمة أنها "إرهابية" هكذا قالها أحد الجنود «- حتما أنت إرهابية...» [14]، « إرهابية، أفهمت ما قالوا؟ ها قد وقع ما كنت أخاف عليك منه إرهابية مرة واحدة هاهم يتحسسون الإرهاب مرة أخرى، يرونه في كل مكان، ويشخصونه في كل إنسان غريب عنهم و يحمل إحدى صفاتك عربي أو مسلم، هاهم يرونه فيك، حتى لو كنت بنت السادسة عشرة ربيعا، وراجعة من فصل التكوين، لا شأن لها بالسياسة، و لا بالإيديولوجيات، ولا بالأديان » [15]،وهذا قمة الاغتراب أن يعيش الإنسان فوق أرضه مغتربا لا يتمتع بالحرية و مقيدا منبوذا.

النفي بلا رجعة:

عنوان آخر لأحداث قصة جديدة وعلامة لغوية توحي بالاغتراب عن الوطن وبالتالي الاغتراب عن الذات والاغتراب عن المجتمع، والنفي أو التهجير مسألة عانى منها الجزائريون كثيرا؛ لأنه سياسة استعمارية انتهجها المستعمر الفرنسي بغية القضاء على هويتهم و تاريخهم و حاضرهم ومستقبلهم والقضاء على المقاومة الجزائرية واستغلال الفرد الجزائري لمصالحه الشخصية إما بتجنيد الشباب في صفوف الجيش الفرنسي أو نفيهم إلى فرنسا أو أحد مستعمراتها للعمل، تقول الكاتبة وهي تحكي قصة النفي بلا رجعة: « كانوا أربعة، و مع الآخرين أصبحوا أربع مئة أو أكثر، الحساب معهم لا يجرؤ على ممارسة دوره.. أ تدرون لماذا ؟ لأنهم سيصبحون مع الأيام شعبا..شعبا بلا أرض، بلا أمة بلا هوية، وماضيا بلا حاضر، ولا مستقبل..في الأرض الجديدة، في آخر الأرض التي يحتلها الاستعمار الفرنسي، كاليدونيا الجديدة، ويعمل على إعمارها برعاياه و عبيده من المستعمرات الفرنسية، وخصوصا الجزائر» [16]، ولهذا نرى الكاتبة في هذه القصة تحاول أنتصف صراعا فكريا بين جيلين من أجيال الجزائر جيل الثورة و جيل

الاستقلال بين الجد الذي عاش حالة اغتراب عن الوطن طيلة الستين عاما، لاقى فيها ما لاقى وحفيده الذي يعيش حالة اغتراب فكري وروحي لأن هاجس الشك لا يفارقه أبدا وهو يبحث عن هويته الضائعة التي تسبب في ضياعها الاستعمار الفرنسي.

غربة مفروضة:

يختزل هذا العنوان أيضا كثيرا من معاني الاغتراب والشعور باللاوجود تعيشه شخصيات هذه القصة وهي في بلاد الغربة غريبة عن الوطن والأهل والأحباب و بعيدة كل البعد عن شيء اسمه الشعور بالانتماء النفسي والروحي والاجتماعي، ف "مسيو سعيد" (الخائن للوطن) والجارة الفيتنامية بطلا هذه القصة وهما من أبناء مستعمرات فرنسية يعيشان في فرنسا ويملكان سبل العيش الكريم إلا أن الشعور بعدم الانتماء لهذا العالم الغريب والشعور بالغربة لا يفارقهما أبدا؛ لأنهما يدركان جيدا أنهما في بلد استنزف الكثير من خيرات بلدانهم وسلب ونهب وقتل ودمر وشرد الملايين من إخوانهم،و لعل ما يقهرهما أكثر هذه الغربة المفروضة عليهما.

مطار x:

الحرف اللاتيني x يوظف كثيرا في المعادلات الرياضية والفيزيائية ويرمز لقيمة عددية مجهولة غالبا ما نبحث عنها ولأجلها توضع الفرضيات وتجرى الحسابات،أما المطار فهو المكان المعروف لدى الجميع؛ إنه المكان الذي تجتمع فيه الطائرات التي تنقل الناس عبر مسافات بعيدة من مكان إلى آخر، وجملة (مطار x) جملة اسمية محولة لذا فهي تحتمل عديدا من التأويلات فقد يعتبر الواحد منا مبتدأها محذوفا تقديره (هذا مطار x)،أو يقدرها على أنها مبتدأ خبره محذوف تقديره(مطارxهذا)أو أن جملة (مطارٌx)تتكون من مبتدإ وخبر نكرتين، ومن المفروض أن الخبر يأتي ليتمم معنى الجملة ويكشف دلالتها وما نلمحه نحن في هذه الجملة أن العلامة (x) الدالة على شيء مجهول حالت دون وضوح المعنى فإذا كان المطار يدل على الرحيل والسفر أو العودة والرجوع ويدل على عدم الاستقرار و التنقل ف(x)تدل على المجهول فإذا كان الرحيل سيكون الرحيل إلى

المجهول وإذا كانت العودة فالعودة ستكون إلى المجهول والحياة غير المستقرة تشبه المجهول لا بداية لها ولا نهاية و قد تكون البداية هي نهاية أو العكس.

و اجتمعت كلمة المطار و العلامة(x)في هذه القصة ليشكلا صورة اغتراب الشخصية العربية المسلمة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا؛ فالمؤتمرات والمجالس العلمية والسياسية الدولية التي يحجز لها سياسيو وقادة العرب مقاعد ويقطعوا لها تذاكر للسفر سوف لن تأت بثمار فكما قال بطل القصة: « قرارات العالم كلها ضدك و المجالس كلها تلعب على قضيتك...إلى أين سباقك ؟إلى نهاية اختارها غيرك قبل اليوم.. الكلام الذي تريد تكراره أصبح لغة خشب لم يعد فيه طائل....المؤتمرات والملتقيات والندوات والخطب الرنانة، لم يعد كل ذلك ليقنع أحدا..صنفه كما تشاء، إنك لست الذي تصنفه...غيرك هو الذي يستطيع أن يصنف» [17]؛ حيث لم يعد الكلام يأت بنتيجة و العبرة بالأفعال كما فعل أجدادنا في حروبهم ضد الاحتلال الغاشم و هي إشارة إلى واقع العالم العربي والإسلامي والدول الضعيفة بصفة عامة اليوم و القرارات السياسية الدولية التي لا يملك الحق في المشاركة في تقريرها ولا حتى المشاركة في تقرير مصيره.

اغتراب:

عنوان قصة اغتراب يدل على نفسه؛ لأن البطلة فيه تعيش حالة من الاغتراب تعيش مع ذكريات تاريخها العريق مع أبطال وأمجاد الثورة التحريرية تشعر بغربتها في دنيا اليوم وتحن للزمن البعيد الذي تراه قريبا من روحها وذاتها إنه الاغتراب النفسي بعينه حيث الصراع يبدو جليا بين الحاضر والماضي وصراع الفكر والروح بين دنيا اليوم ودنيا الأمس.

لغة الاغتراب في المجموعة القصصية:

لا يمكن لأي جنس أدبي سواء الرواية أو القصة أو الشعر أو غيره أن يتميز بسمات معينة أو أن يأخذ شكله الخاص به أو أن يبلغ الغاية التي سطر لأجلها دون اللغة، ذاك النسيج من الألفاظ المحاك في قوالب تختلف أشكالها وألوانها باختلاف مستعمليها فاللغة = العمل الأدبي ؛ فإذا ارتقت ارتقى معها العمل

الأدبي و إذا انحطت انحط معها، وهي الوسيلة الوحيدة الأكثر تعبيرا عمّا يختلج النفوس من مشاعر و أحاسيس و أفكار و تخيلات، ويعبر بها الفرد عن أحزانه وآلامه وآماله وطموحاته. وبما أن الأعمال الأدبية جاءت لتحتضن هذا الواقع النفسي و الاجتماعي و الفكري للإنسان كان لزاما عليها أن تمتلك الكفاية اللغوية و الأداء الكلامي اللذين يؤهلانها لأن تترجم هذا الواقع الإنساني بمختلف تعقيداته.

وعلى هذا الأساس تشكلت المجموعة القصصية "الساكنة الجديدة"؛ حيث كان للّغة دورا بارزا و فعّالا في تشخيص و محاكاة الواقع النفسي والاجتماعي و الفكري و السياسي للفرد الجزائري أثناء وبعد الاحتلال الفرنسي، فكانت لغة القصة غنية بالألفاظ الدالة والموحية التي تصف هذا الواقع الذي يحمل كثيرا من التضحيات والبطولات ، حيث أحسنت الكاتبة في اختيارها للمعجم اللغوي المتشبع بمعاني الاغتراب الذي يشعر به و يعيشه كل فرد جزائري عانى من ويلات الاحتلال الفرنسي وآثاره ، فلا تكاد تخلو المجموعة القصصية من الألفاظ الدالة على الاغتراب و عبارات القلق والتوتر التي تظهر الحالة النفسية المغتربة للكاتبة و لشخصيات هذه القصص، و ملامح الاغتراب تبدو جلية واضحة من خلال المعجم اللغوي لعناوين المجموعة - كما أشرنا سابقا- وكذا سائر عبارات النصوص المختارة فهي تحمل كثيرا من معاني الاغتراب نذكر منها :

« في عالم تقهره المادة، وتحط من قدره الكرامات المداسة أصبح الناس يبحثون عن الانطواء و الوحدة والتفرد »[18]، «فلا نتأخر مساء في الدخول إلى البيت، خصوصا في ظروف الحرب على الاحتلال، التي لا نعرف لها أولا من آخر »[19]، «شباب يملكون الحاضر..وليس غير الحاضر، أما الأحلام فلا حدود لامتلاكها، إنها أحلام، لكن هناك من سيعمل على مصادرة الأحلام أيضا، كما عمل على مصادرة الأرض، والعرض، والحرية،و التاريخ»[20]،« يفتح الباب ليدخل قبس من نور الرواق ليس أكثر، إن نور الشمس بعيد جدا، و الزنزانة توجد تحت طبقات من الأرض السابعة أو العاشرة لا يهم »[21]، «إن الخيانة أبشع ما قام به

البشر، وتفنن في عملها الإنسان، وهذا وطننا نهرّبه كل مرة في قلوب فارغة إلا الدم...لنجد الخيانة كل مرة تهجم علينا و عليه » [22]، « هذه الغربة القافزة من عيون الناس، غربة رهيبة لا تفتقد الحنان فقط، ولكن تفتقد الأمان أيضا، غربة لا تسكن عيون الأغراب وحدهم، بل تسكن حتى عيون أهل المدينة » [23]، وغير هذه العبارات كثير مما يكشف لنا الاغتراب الواضح في لغة الكاتبة التي استطعنا من خلالها أن نسبر و نكشف صورته و ملامحه وأشكاله المختلفة.

إضافة إلى وعي الكاتبة بضرورة استحضار المعجم اللغوي الذي يضم المعاني المختلفة للغربة والاغتراب و المعاناة المعبرة عن الواقع المعيش للفرد الجزائري ، توظيفها اللغة الشعرية التي لَانَ من خلالها ذلك المعجم فسمحت للمعاني المعبرة عن ذاك الواقع بأن تتدفق لتحدث تأثيرها المباشر في المتلقي تقول الكاتبة وهي تتحدث بلغة شاعرية تصف ألم ومعاناة "الجزائر" :« الرصاف والجسر، وحتى النهر، وهو يجري باستحياء وخجل من تلوثه بألوان أخرى من السوائل غير الرقراقة، لا تغمض له نتيجة شلالات الأحزان التي يغرفها كل يوم، رغم الليل الذي بدأ يفرض سيطرته عليه وعلى المدينة الحبلى بالأحداث المعذبة بألف كابوس و كابوس بدل الكلام المباح من ألف ليلة و ليلة، وأحلام شهرزاد في الانعتاق بالحب » [24]،و نجد الكاتبة تتفنن في شاعريتها وهي تذكر الحديث الذي دار بين الجدة وحفيدتها وهي تحذرها من غدر الأعداء في قصة "إرهابية" و هي بذلك ترمز للجزائر التي فقدت أمنها واستقرارها ولياليها الجميلة نتيجة بطش و ظلم الاحتلال الغاشم تقول : « سيري بخطى ثابتة، و لا تنظري جهة الجنود، و لا تفتحي عينيك النجلاوتين تجاههم أبدا، إنك لست في زمن أبي نواس، وعيون ألمها بين الرصافة والجسر، لا دور لها في مثل هذه الظروف، وزمن الحرب لا يترك لنسائم النهر أن تتغزل بالحب و الأمن و المشاعر الجميلة، إنهم أغراب عنك....إنهم كثر، وألوانهم متعددة لا وطنا لهم، ولا دينا واحدا،... فسيفساء من القوة اتفقت على إضعافك وترهيبك وتهديدك، جاءت للسياحة على أرضك..... التي أصبحت هي الأخرى فسيفساء في كل شيء، العدوى الملقحة

فعلت فعلها بالنسبة لشعبك المظلوم...» [25]، والنصوص كثير التي تثبت توظيف الكاتبة للغة الشعرية التي تنبض بروح الثورة و المتشبعة بمعاني الاغتراب والغربة والمعاناة التي تشخص وتجسد هذا الواقع الأليم بكل تفاصيله.

أشكال الاغتراب في المجموعة القصصية :

الاغتراب النفسي والروحي (اغتراب الشخصية) :

تشكل الشخصية أهم عنصر في البناء السردي بحيث تتحكم بواسطة أقوالها ووظائفها وديناميتها بكل البنيات السردية الأخرى من أحداث ومكان وزمان بغية محاكاة الواقع وتجسيده عبر بنية نصية منتجة، وتعرف الشخصية على أنها: « مجموع ما يقال عنها بواسطة جمل متفرقة في النص أو بواسطة تصريحاتها و أقوالها و سلوكها » [26] وهي بنية دلالية قابلة للوصف والتحليل من خلال صفاتها وسلوكياتها ووظائفها داخل الفضاء النصي،فهي إذن علامة سيميائية ضمن مجموعة من العلامات تختزل الآراء والمذاهب والإيديولوجيات ومختلف التوجهات الفكرية و السياسية و الثقافية و الاجتماعية لمجتمع معين و في عصر من العصور، لذا فهي العنصر الأكثر استقطابا للمتلقي لفهم فحوى النص السردي بمختلف أبعاده فيلجأ إلى تحليل نفسيات الشخصيات السردية انطلاقا من تحليل وظائفها داخل هذا الفضاء النصي المعقد الذي يحاكي واقعنا بمختلف تعقيداته .

وبما أن الاغتراب من أهم الظواهر الإنسانية المرتبطة بالحالة النفسية و الاجتماعية والوجودية بصفة عامة للفرد فقد سعت النصوص السردية لاحتضان واقع الإنسان النفسي والاجتماعي والسياسي والايديولوجي وتجسيده من خلال الشخصية السردية للبحث عن حلول لهذه المشكلة التي أضحت تهدد حياة الإنسان المعاصر من جميع النواحي.

و الاغتراب النفسي أحد أشكال الاغتراب التي تصيب الإنسان نتيجة الظروف والملابسات المناقضة لمبادئه وأفكاره التي قد تزعزع فيه ثقته بنفسه فتجعله ينسلخ منها فيصبح غريبا عنها تماما [27]؛وبالتالي ينفصل عن مجتمعه و يفقد الانسجام و التكيف مع من حوله فيؤدي به هذا إلى العزلة والضعف و الانهيار.

أبدعت الكاتبة "زهور ونيسي" في تشخيص حالة الاغتراب النفسي التي تعاني منه أبطال وشخصيات المجموعة القصصية نتيجة الظروف الصعبة و القاهرة مما أفقدها روح التفاعل والإنتاج والشعور بالانتماء سواء داخل الوطن أو خارجه، فمثلا "جمال" حامل الشهادة الجامعية وعازف الألحان على آلة الأكورديون في شوارع باريس على جادة الإليزي، بطل قصة (على جادة الإليزي) يجد نفسه مغتربا عن نفسه وعن روحه في عالم غريب طغت فيه المادة وابتعد فيه الناس عن كل القيم الروحية التي تسمو بالإنسان فقد كان يتوهم بأن تلك الآلة البسيطة وسيلة قد توقظ روح الإنسانية في هؤلاء البشر فكما تقول الكاتبة: « إنه يحاول أن يذكر الناس بشيء اسمه الروح و السمو بها إلى عالم الخيال و الأماني، كثيرا ما نسوه، أو أهملوه و ركضوا تجاه شيء اسمه المادة »[28]، إنه الاغتراب الروحي الذي توحي به كلمات "جمال" حين قال:« الناس أصبحت عيونهم لا توحي بالفضول كالسابق، أصبحوا يتحاشون النظر إلى غيرهم تحاشيا للتجاوب معهم، لا بالنظر ولا بغيره،أصبح الناس يبحثون عن الانطواء و الوحدة و التفرد»[29].

كما أن الاغتراب النفسي أن يجد الإنسان ما يعارض مبادئه والقيم الإنسانية التي شب عليها فيحاول رفضها ليغترب بنفسه إلى عالم آخر باحثا عن عالمه المثالي، وهذا ما ألفينا عليه "جمال" لأنه وسط مجتمع لا يعير انتباها للقيم الأخلاقية فكل شيء عنده مباح لا الدين والإنسانية تمنعه من فعل المنكرات يقول "جمال": « الشباب يعاشرون بعضهم دون مسؤولية، يتمتعون هكذا متعا جسدية بالعيش معا و المعاشرة الكاملة، ولا أحد يحتم أو يضغط على الآخرين أي التزام، يتفقون على ذلك... و ينفصلون ليعيدوا الكرة مع وجوه أخرى»[30]، لم يجد "جمال"لذاته وسط هذا العالم الغريب معنى فكما تقول الكاتبة:«فجأة كره نفسه، احتقرها،استصغرها،أصبح يراها حشرة مسحوقة بأقدام هؤلاء»[31]، فعلا هو الاغتراب النفسي حيث تجد الذات كل ما يتعارض مع مبادئها وميولاتها وأفكارها ويقينها بذاتها لم يجد "جمال " حلا سوى التفكير بالعودة إلى الوطن يتحدث مع نفسه ويقول: « إنك إنسان في وطنك حتى وأنت بطّال ضائع دون شهادات

ولا طموحات، إنسان في وطنك محبوب رغم فشلك،قلوب كثيرة تغمرك بالحب تحنو عليك،...فلماذا تبقى هنا طيف إنسان وكل شيء في هذا العالم بثمن» [32].

كما تغوص شخصيات قصة "النفي بلا رجعة" في اغترابها النفسي والروحي الذي عانى منه الجزائريون بسبب الاستعمار الفرنسي ومحاولاته تغريب الهوية الجزائرية وطمس معالم الحياة العربية الإسلامية ومبادئها ويتجلى هذا الشكل من الاغتراب من خلال الحوار الذي دار بين الجد وحفيده في هذه القصة [33] :

- جدي هل نحن عرب أم فرنسيس ؟
- نحن عرب يا صغيري...عرب أبا عن جد..
- ولكننا لسنا كالعرب، و لا نحن نعيش معهم..
- أعلم ذلك يا صغيري...أعلم و أتألم.. ومنذ خمسين سنة وأنا أعلم و أتألم، وبقدر ما ينكشف علمي بقدر ما ينكشف ألمي...
- إذن نحن فرنسيون يا جدي..إن نصف قرن دهر طويل..
- وهل تتشكل الهوية بالزمان؟ كلا.. إننا لسنا فرنسيين حتى ولو مرت علينا مئات السنين
- ولكنني لا أحسن أي شيء من العرب، لا اللغة ولا العادات.. وأمي لا أراها تتكلم سوى
- الفرنسية، وأبي كذلك أليسوا فرنسيين،...أنت فقط يا جدي تتكلم العربية،و لا تحسن الحديث بالفرنسية، فتكلمها دائما مخلوطة بعبارات لا نعرفها ولعلها العربية.

هكذا أراد المستعمر الفرنسي وهو يزرع أحقاده ضد الجزائريين والوطن أن تتخبط الشخصية الجزائرية في حقيقة انتمائها العرقي والديني،وذلك بضرب وغلغلة أحد أهم مقوماتها وهي اللغة العربية والدين الإسلامي و هذا قمة الاغتراب أن يعيش الإنسان في دوامة الشكوك والابتعاد عن اليقين بالذات وانعدام الثقة بالنفس وأن ينسلخ من مقوماته التي تثبت هويته أمام العالم.

وهاهما مسيو سعيد "الخائن للوطن" والجارة الفيتنامية صاحبة القد القصير والعينين الثاقبتين هما شخصيتان بطلتا قصة "غربة مفروضة"مغتربان في بلد أجنبي وعلى الرغم من معيشتهما الجيدة إلا أن الشعور بالاغتراب والحنين لا يفارقهما أبدا، أما مسيو "سعيد" السكير فقد كان يهرب من ذاته ومن واقعه الغريب الذي لم يشعر يوما بالانتماء إليه رغم تحسن أوضاع معيشته، كان يختبئ وراء الخمرة حتى لا يتذكر أنه في يوم من الأيام قد خان وطنه، هذا الفعل المنبوذ فعل الخيانة الذي يتناقض مع مبادئ الإنسانية يعيش صاحبه وحيدا غريبا منبوذا، أما السيدة الفيتنامية فهي الأخرى تحاول أن تقضي جل أوقاتها في العمل والتفاني فيه لأنه بالنسبة لها المخرج الوحيد للنسيان.

أما قصة اغتراب فهي الأخرى فضاء شخصت فيه الكاتبة اغترابها النفسي في دنيا اليوم تسبح في ذاكرة التاريخ وهي تنظر إلى صور المجاهدين المعلقة بالمتحف حيث يتصارع الماضي والحاضر لتجد أن الغلبة للماضي تقول: « وقفت أتأمل الوجوه الرموز للمرة الألف، وللمرة الألف، كنت أحس بذلك الخيط الرفيع المتين الذي يربط بين دنياي و دنياهم، يربط بين اغترابي في دنيا اليوم، واغترابهم عن دنيا اليوم..... » [34].

الاغتراب الاجتماعي:

لم يعد المجتمع عبارة عن نسيج متجانس من الناس أو نسق مكوّن من مجموعة العادات و الأعراف و التقاليد بل تعدى ذلك إلى ما هو أبعد من ذلك من تنظيمات، واتجاهات ووحدة متكاملة وأي خلل أو انشقاق يحدث لهذا التكامل يؤدي بالفرد إلى نبذ كل سائد غير مرغوب فيه وقد يحاول إسقاطه وتغييره بغية تحقيق ذاته [35]، والاغتراب الاجتماعي يمنع الفرد من التفاعل مع باقي الأفراد و بالتالي يصبح شخصية غير فعالة و لا منتجة [36]؛ فيلجأ الفرد إلى التمرد بغية تغيير ما يراه مخالفا للعادات و التقاليد.

والصراع الاجتماعي مستويان صراع داخلي وآخر خارجي؛ أما الصراع الداخلي فيتمثل في الصراعات العرقية أو بين الفئات الدينية والطبقات الاجتماعية أما

الصراع الخارجي فهو الذي يحدث بين الدول و من سماته أنه يزيد من إحساس الإنسان بالغربة عن واقعه الاجتماعي [37]،أما عن الاغتراب الاجتماعي الذي تصوره لنا المجموعة القصصية فيمكن أن نصنفه إلى قسمين الاغتراب الاجتماعي داخل الوطن، والاغتراب الاجتماعي خارج الوطن(الغربة).

الاغتراب الاجتماعي داخل الوطن:

إن الثقافة والأفكار والمعتقدات التي حاول أن يغرسها المستعمر الفرنسي في عقول الجزائريين والعادات والتقاليد والقوانين الاجتماعية كلها تعتبر في نظرهم خروج عن القيم الاجتماعية و الروحية التي شب عليها لأنها عادات غريبة عن المجتمع الجزائري و تخالف تعاليم الدين الإسلامي، فجأة وجد هذا الإنسان نفسه غريبا عن مجتمعه فوق أرضه تمنعه السياسية الفرنسية من أن يمارس حياته الاجتماعية التي اعتاد عليها بكل حرية ولعل هذا ما جعله يفكر في الانقلاب عليها و محاولة تغيير هذا السائد المنبوذ لإسقاطه بغية تحقيق ذاته على جميع الأصعدة.

ومن ملامح هذا الاغتراب ما تجسده قصة "الساكنة الجديدة"و"العبور على الجسر" وهما قصتان تصوران الحياة اليومية للجزائريين وهم تحت ذل الاستعمار وسياسته الجائرة؛ حيث لا يستطيع الإنسان أن يمارس حياته الطبيعية بكل حرية مطلقة وعليه أن يمشي حذرا لأنه مراقب حيثما حلّ، ينتابه الخوف والذعر و لا يشعر بالأمان،و يتجلى هذا النوع من الاغتراب في "الساكنة الجديدة" من خلال ذلك الفضاء المكاني المغلق الذي تزج فيه مناضلات ومناضلي الجزائر وهو "الزنزانة" بعد التعذيب والتنكيل والجوع والعطش وهي محاولات لقتل الحياة وقتل روح المقاومة داخل كل مناضل ومناضلة تقول الكاتبة :« ساكنة الزنزانة شابة في العشرين...غاب عنها الجمال منذ أن سكنت الزنزانة، رغم أنها جميلة جدا،....يبدو أن المكان يعطي للأشياء مفاهيم مختلف، تتغير المفاهيم من مكان إلى آخر....العيون الملونة لساكنة الزنزانة ذبلت من الدموع الكثيرة التي ذرفت بسبب التعذيب والجوع والعطش و الإهانة....» [38]،و بما أن الزنزانة فضاء مكاني مغلق

فالأكيد أن ساكنها سيكون مغتربا عن المجتمع وعن الأهل و بالتالي سيكون بعيدا عن قضية الوطن.

أما "العبور على الجسر" فهي الأخرى تصور كيف كانت دوريات العسكر الفرنسي ونقاط التفتيش تشكل عائقا أمام حركة الأهالي وتنقلهم من مكان الى آخر بغية القضاء على العمليات الفدائية التي كان يحاول تنفيذها المناضلون فهم ليسوا أحرارا وكل من يشك في أمره يزج به في السجن.

كل هذه القيود وغيرها التي فرضها الاستعمار الفرنسي تعرقل حياة هؤلاء الأفراد وتزيد من اغترابهم الاجتماعي داخل وطنهم الذي كان من المفروض أن يعيشوا فيه أحرارا لأنها تهمشهم و تمنعهم من خدمته وتحقيق أهدافهم في هذه الحياة، لكنه سرعان ما يتحول هذا إلى غضب إيجابي حيث يطالب فيه بإسقاط كل هذه المظاهر الغريبة عن المجتمع الجزائري وتحرير الهوية الجزائرية من ذل هذا الاستعمار.

الاغتراب الاجتماعي خارج الوطن :

في هذا النمط من الاغتراب تركز الكاتبة على تصوير الاغتراب الاجتماعي الذي يعاني منه المهاجرون الجزائريون وغيرهم من أبناء المستعمرات الفرنسية في بلاد الغربة نتيجة النفي أو سياسة التهجير التي كانت تتبعها فرنسا، حيث لم يشعر المغتربون بانتمائهم الروحي ولا الاجتماعي في مجتمعات أجنبية تختلف دياناتها وعاداتها وتقاليدها وطريقة عيشها، ولعل الأمر الذي جعلهم يشعرون بهذا الاغتراب نظرات ازدراء واحتقار أصحاب البلد لهؤلاء المهاجرين ذوي الألوان المختلفة، وعدم السماح لهم بمزاولة نشاطات حياتهم كأي مواطن عادي،تصف الكاتبة حياة "جمال" وسط هذا العالم الغريب فتقول: « ستة أشهر كاملة لم ير فيها نقطة ضوء واحدة تشير إلى التفاؤل بالمستقبل،ستة أشهر جاع فيها وبرد و تعرى، وحاول الاحتماء مرة بالناس، ومرة بالحدائق والأنفاق، رسائل وطلبات كثيرة كتبها بفرنسيته الجميلة، طالبا الإدماج في دواليب الحياة العملية، مكاتب و إدارات، ومصالح،....وهاهو يضيع أكثر من الأيام الأولى،و يضيع على الأرصفة

وهوامش المدينة أكثر من أيامه الأولى... » [39]كما توحي كلمات "جمال " باحتقار أصحاب البلد وتذمرهم من وجود هؤلاء فيقول :« لعل الناس المتذمرين مخطئون،إن مدينتهم لا يمكن أن تحصل على هذا التميز إلا بهذه الألوان والأجناس والأعراق، إنه قدرهم أن يتحملوا رواسب وتصرفات أسلافهم، عندما غزوا شعوبا غيرهم و استعمروهم وفقروهم، فكانت النتيجة هذه الهجرات المتتالية، التي لا تنتهي، و ليس لها حد مع أجيال قادمة » [40].

كما تجسد قصة "مطار x " الصراع الخارجي الذي يحدث اليوم بين الدول الغربية التي تملك زمام الأمور والقرارات السياسية والاقتصادية كلها بيدها وبين الدول الضعيفة المهمشة التي تعيش حالة تهميش وافتقار للسلطة والسيادة على نفسها في عالم اليوم فكما تقول الكاتبة في القصة: «إنك أهم بضائعهم، بقرة حلوب أنت، ضرعها لا ينضب..لقد أثبت لك التاريخ، وأنت اللبيب البليغ بالوقوف أمام هذا الغول الملهوف، على قطع أخرى من الحلوى في العيد وغير العيد » [41]، فهي بهذا تعيش حالة اغتراب عن العالم الخارجي على اختلاف أشكاله وتغريب عن الميدان الفكري والسياسي والاقتصادي مما يؤثر سلبا على حالة الأفراد النفسية والاجتماعية و الفكرية.

هكذا ترجمت الكاتبة والأديبة الجزائرية "زهور ونّيسي" بلغتها الأدبية الراقية ظاهرة "الاغتراب" من خلال مجموعتها القصصية "الساكنة الجديدة " حيث استطاعت من خلال على جادة الإليزي، إرهابية، النفي بلا رجعة، غربة مفروضة، مطار x، اغتراب وتعاطف والساكنة الجديدة والعبور على الجسر، وسد الخيال ، أن تلج إلى الحياة النفسية والاجتماعية والسياسية للفرد الجزائري وتصور معاناته وشعوره بالاغتراب الذي تسبب في وجودها لاستعمار الفرنسي بمختلف أشكاله.

كما عرضت الكاتبة قضايا هامة تصوّر من خلالها ظاهرة اغتراب الشخصية العربية المسلمة وكل البلدان الضعيفة وسط عالم السيطرة فيه للدول العظمى حيث أصبحت جل القرارات السياسية في يدها، إضافة إلى غياب القيم الروحية والأخلاقية وتغليب المصالح والمادة على الحياة الإنسانية.

إضافة إلى هذا يمكن القول أن "القصة" جنس أدبي يمكنه احتضان قضايا إنسانية مختلفة واستيعاب تطورات العصر وربطها بواقع الإنسان النفسي والاجتماعي والفكري والإيديولوجي.

الهوامش:

[1] عبد القادر توازن "الشعور بالاغتراب عند أبي العلاء المعري و ألبير كامو" رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الدراسات الأدبية المقارنة،جامعة الجزائر، كلية الآداب واللغات ن قسم اللغة العربية وآدابها ، ص 18.

[2] ينظر، جديدي زليخة "الاغتراب " مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية، وادي سوف، العدد 8 جوان 2012، ص348.

[3] المرجع نفسه، ص 349.

[4] قيس النوري "الاغتراب اصطلاحا و مفهوما وواقعا " عالم الفكر، العدد1، 1979م، مج/ 10، ص17،16،15،14.

[5] ينظر عبد اللطيف محمد خليفة : دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة والنشر،2003م،(دط)، ص 21.

[6] ينظر جميل صليبيا : المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية و الانجليزية و اللاتينية، دار الكتاب اللبناني،ج1، 1982م ص 765. نقلا عن سماح بن خروف " الاغتراب في رواية كراف الخطايا لعبد الله عيسى لحيلح" رسالة مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري،جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب واللغات الأجنبية، قسم اللغة العربية و الأدب العربي، ص 28.

[7] ينظر، المرجع نفسه،ص 28

[8] ينظر، عبد اللطيف محمد خليفة : دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص 22.

[9] ينظر، عبد القادر توازن : الشعور بالاغتراب عند ابي العلاء المعري و ألبير كامو، ص 22.

[10] ينظر المرجع نفسه، ص22.

[11] ينظر عبد الناصر حسن : سيميوطيقا العنوان في شعر عبد الوهاب البياتي، دار النهضة العربية، القاهرة 2001م، ص7.

[12]ينظر محمد الداهي : سيميائية السرد (بحث في الوجود السيميائي المتجانس)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة،2009م،
ط1، ص 124.

[13] ينظر ابن منظور : لسان العرب،دار صادر، بيروت، مج 1، ص 436.

[14] المدونة، 26.

[15] المصدر نفسه، ص26

[16]المصدر نفسه، ص 37

[17]المصدر نفسه، ص 14.

[18]المصدر نفسه،ص 10.

[19]المصدر نفسه، 21.

[20]المصدر نفسه، ص 34.

[21]المصدر نفسه، ص79.

[22]المصدر نفسه، ص 87

[23]المصدر نفسه،ص 111.

[24]المصدر نفسه، ص21.

[25]المصدر نفسه، ص 23.

[26] سماح بن خروف : الاغتراب في رواية كراف الخطايا لعبد الله عيسى لحيلح، ص 81.

[27] ينظر المرجع نفسه،ص 47.

[28] المدونة، ص 9.

[29]المصدر نفسه، ص 10.

[30]المصدر نفسه،ص 10.

[31]المصدر نفسه، ص 16

[32]المصدر نفسه، ص17.

[33]المصدر نفسه، ص 33.

[34]المصدر نفسه، ص 59

[35]ينظر، سماح بن خروف : الاغتراب في رواية كراف الخطايا لعبد الله عيسى لحيلح، ص 53.

[36] ينظر، جديدي زليخة :الاغتراب، ص 349.

[37] ينظر، سماح بن خروف : الاغتراب في رواية كراف الخطايا لعبد الله عيسى لحيلح، ص 64.

[38]المدونة،ص 79،80.

[39]المصدر نفسه،ص16.

[40]المصدر نفسه، ص 13

[41]المصدر نفسه، ص 52.